

7 - كتاب درر السمط في اخبار النسب

هذا هو الكتاب الذي اشار اليه المقرئ ، واقتبس منه
فصولا ، ولم نعر عليه ، ولم يشر اليه احد ممن ترجموا ابن
الابار ، وها نحن اولاء نأني بهذه الفصول في مؤلفنا هذا
استكمالا للبحث ، نقلا عن (1) نفع الطيب :
قال رحمه الله تعالى :

« رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، فروع النبوة
والرسالة ، وينايم السماحة والبسالة ، صفوة ال ابي طالب ،
وسراة بنى لؤى بن غالب ، الذين جاءهم الروح الامين ،
وحلاهم الكتاب المبين ، فقل في قوم شرعوا الدين القيم ، ومنعوا
اليتيم ان يقهر والايام : ما قد من اديم آدم اطيب من ابيهم
طينة ، ولا اخذت الارض اجمل من مساعدهم زينة ، اولاهم

(1) صفحة 601 - 604 من الجزء الثاني .

ما عبد الرحمن ، ولا عهد الايمان وعقد الامان ، ذؤابة غير
اشابة ، فضلهم ما شانه نقص ولا شابه ، سرارة محلتهم سر
المطلوب ، وقرارة محبتهم حبات القلوت ، اذهب الله عنهم
الرجس ، وشرف بذلقتهم الجنس ، فان تميزوا فبشر بمتهم
البيضاء ، او تحيزوا فلعشيرتهم الحمراء ، من كل يسوب
الكتيبة ، منسوب انجيب ونجيب ، نجاره الكرم وداره الحرم ،
نمته العرائن من هاشم ابى النسب الاصرح الواضح ، الى نبة
فرعها في السماء ، ومفرسها سررة الاباطح ، اولئك السادة احيى
وأفدى ، والشهادة بحبهم أوفى وأؤدى ، ومن بكتمتها
فانه آثم قلبه .

فصل

ما كانت خديجة لتأتى بخداج ، ولا الزهراء لتلد الا ازاهر
كالسراج ، مثل النحلة لا تأكل الا طيبا ، ولا تضم الا طيبا ،
خلدت بنت خويلد ، لينزكو عقبها من الحاشر العاقب ، ويسمو
مراقبها على النجم الثاقب ، لم تجد بمثلها المهاري ، ولم يلد له
غيرها من المهاري ، آمت من بمولتها قبله ، لتصل السعادة

فحببها حبله ، ملاك العمل خواتمه ، رب ربات جمال انقذ من
بعول رجال ،

ما والتانيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال
هذه خديجة من اخيها حزام احزم ، ولشعار المصدق من
شعارات القص ألزم ، ركنت إلى الركن الشديد ، وسددت
للهدى كما هديت للتسديد ، يوم نبىء خاتم الانبياء ، وانبيء
بالنور المنزل عليه والضياء .

فصل

وكان قبيل المبعث بين يدي لم الشعث ،
يثابو على كل حسنى وحسنة ، ويجاور شهرا من كل
سنة ، يتحرى حراء بالتهجد ، ويرجى تلك المدة في التعبد .
وذلك الشهر المقصود على التبرر المقدور فيه رفع الضرر شهر رمضان
المنزل فيه القرآن ، فيبناه لا ينام قلبه وان نامت عيناه ، جاءه الملك
مبشراً بالنجح ، وقد كان لا يرى رؤيا الا جاءت كفلق الصبح ،
فغمره بالكلاءة ، وأمره بالقراءة . وكما تحبس له غظه ثم أرسله

وإذا أراد الله بعبد (1) خيراً غسله .

تريدون ادراك المعالي رخصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل
كذلك حتى عاذ بالارق من الفرق . وقد علق فاتحة الملق .
فلا يجرى غيرها على لسانه ، وكأنما كتبت كتابا في جنانه .

فصل

ولما أصبح الامل ، وتوسط الجبل يريد السهل وقد قضى
الاجل وما نضا الوجل نوجى بما فى الكتاب المسطور ونودى
كما نودى موسى من جانب الطور فعرض له فى طريقه ما
شغله عن فريقه . فرفع رأسه متأملا فابصر الملك فى صورة رجل
متمثلا . يشرفه بالنداء ويعرفه بالاجتباء . وانما عضد خبر
الليلة بعيان اليوم . وأرى فى اليقظة مصداق ما اسمع فى النوم
ليحق الله الحق بكلماته . وعلى ما ورد فى الاثر وسرد رواة
السير فذلك اليوم كان عيد فطرنا الآن ، وغير بدع ولا بعيد
أنه يبدأ الوحي بميد . كما ختمه بعيد اليوم آملت لكم دينكم .
فبهت عليه السلام لما سمع نداءه وراءه . وثبت لا يتقدم أمامه ولا

(1) اقتباس من حديث شريف .

يرجع وراءه .

وقف الهوى بى حيث انت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
ثم جعل من الخوف والرجاء لا يقلب وجهه فى السماء ،
الا تعرض له فى تلك الصورة ، وعرض عليه ما اعطاه الله سبحانه
من السورة . فيقف موقف التوكل ، ويمسك حتى عن التأمل .
تتوق اليك النفس ثم اردھا حياء ومثلئ بالحياء حقيق
اذود - واد الطرف عنك وما له الى احد الا اليك طريق

فصل

وفطنت خديجة لاحتباسه ، فامعنت فى التماسه « تزوجوا
الودود الواود » وافورها بل لفوزها بعثت فى طلبه رسلها ،
وانبعثت تأخذ عليه شعاب مكة وسبلها « ان المحب اذا لم
يستتر زارا » .

طال عليها الامد ، فطار اليها الكمد ، والمحب حقيقة من
لا يفيق فيقة ، بالنفس النفيسة سماحه وجوده . وفى وجود
المحبوب الا شرف وجوده .

كأن بلاد الله ما لم تكن بها - وان كان فيها الخلق طراً - بلاع

أقضى نهاري بالحديث وبالمتى ويجمعنى والهـم بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا دجى لى الليل هنرتنى ليك المضاجع
أقد نبتت فى القلب منك محبة كما نبتت فى الراحتين الاصابع

فصل

وبعدلاى ما وردعليها . وقعد مضيفا اليها . فطفت
بكم الاجلال تمسح أركانها ، وتفسح مجال السؤال عما
خلف له مكانه ، فباح لها بالسرا المغيب ، وقد لاح وسم الكرامة على
الطيب المطيب . فعلمت انه الصادق المصدوق ، وحكمت بأنه
السابق لا المسبوق . اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله .
وما زالت حتى أزالت ما به من الغمة . وقالت انى لارجو ان
تكون نبي هذه الامة .

انى تفرست فيك الخير اعرفه والله يعلم ان ما خاننى البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد ازرى به القدر
لا نرهب فسوف تبهر ، وسيبدو امر الله تعالى ويظهر .
انت الذى سجدت به الكهان ، ونرات له من صوامعها الرهبان .
وسارت بخبر كرامته الركبان . أنت الذى حملت أخف منه

حامل ، ودرت ببركته الشاة فاذا هي حافل .

وانت لما ولدت اشرقت الـأرض وضاءت بنورك الافق

فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبيل الرشاد نخلة ورق

فصل

وما لبثت أن غاقت أبوابها ، وجمعت عليها أثوابها .

وانطلقت الى ورقة بن نوفل ، تطلبه بتفسير ذلك المجل . وكان

يرجع الى عقل حصيف ، ويبحث عن يبعث بالدين الحنيف .

فاستبشر به ناموسا ، وأخبر انه الذي كان يأتي موسى .

فازدادت ايمانا ، وأقامت على ذلك زمانا . ثم رأت ان خبير

الواحد قد يلحقه التنفيذ ، ودرت ان المجتهد لا يجوز له التقليد ،

« طالب العلم فربضة على كل مسلم » . فرجعت ادراجها في ارتياد

الاقذاع ، وألقى في روعها القاء الخمار والقناع . فهناك وضع

لها البرهان . وصح لها ان الآتى ملك لا شيطان .

تدلى عليه الروح من عنده ربه ينزل من جو السماء ويرفع

نشاوره فيما نريد وقصدنا اذا ما اشتهى انا نطعم ونسمع

فصل

سبقت لها من الله تعالى الحسنى ، فصنعت حسنا ، و قالت
حسنا ومن يوم من بالله يهد قلبه ، ما فتر الوحي بعدها ، ولا مطلق
الحق المحي وعدها « وعد الله لا يخلف الله وعده » دانت احب
ذى الاسلام ، فحيها الملك بالسلام ، من الملك السلام ، من
كان لله كان الله له ، أغنت غناء الابطال ، فغناها لسان الحال :
هل تذكرين - فذلك النفس - مجلسنا يوم التقينا فلم انطق من الحصر
لا أرفع الطرف حولى من مرافقة بقي على وبعض الخزم فى الحذر
يسرت لاحتمال الاذى والنصب ، فبشرت ببیت فى
الجنة من نصب ، هل آمنت اذ آمنت من الرعب ، حتى غنيت
عن الشعب بما فى الشعب .
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ان تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا
واما اها احتملت عض الحصار ، وما أطاقت فقد النبي المختار .
يطول اليوم لا ألقاه فيه وشهر رنة تقى فيه نصير
والحبيب سمع المحب وبصره ، وله طول محياه وقصره .
أنت كل الناس عندى فياذا غبت عن عيني لم ألق أحد

مكنت المرياسة ، مواسية وآسية ، فثالثت في بحبوحة الجنة مريم
وآسية ، ثم ربعت البتول (1) فبرعت ، نطقت بذلك الآثار
وصدعت ، خير نساء العالمين أربع .

فصل

الى البتول سير بالشرف التالد ، وسبق الفخر بالام الكريمة
والوالد . حلت في الجيل الجليل ، وتحلت بالمجد الاثيل ، ثم
تولت الى الظل الظليل .

وليس يصح في الافهام شيء . اذا احتاج النهار الى دليل
وأبيها (2) ان أم أبيها لاتجد لها شبيها . نثرة النبی ،
وطلبة الوصى . وذات الشرف المستولي على الامة القصى . كل
ولد الرسول درج في حياته ، وحملت هي ما حملت من آياته .
ذاك فضل الله يؤتيه من يشاء . لافرع للشجرة المباركة من سواها .
فهل جدوى اوفر من جدواها . الله أعلم حيث يجعل رسالته .
حفت بالتطهير والتكريم ، وزفت الى الكفء الكريم ، فوردا

(1) يعنى السيدة فاطمة فانها تلقب بالبتول

(2) هذا قسم . ويلاحظ فى الجملة الجنس التام .

صفو العارفة والمثة ، وولدا سيدي شباب اهل الجنة . عوضت
من الامتعة الفاخرة ، بسيدي الدنيا والاخرة . ما اتقل نحوها
ظهرا ، ولا بذل غير درعه مهرا . كان صفر اليدين بن البيضاء
والصفراء ، وبعالة لا حيلة معها في اهداء الحنة السيرا . فظاهره
الشارع وخاله . وقال في بعض صلوك لامال له . نرفع درجات من نشاء .
فصل

أنتهب الايام أفلاذ احمد وأفلاذ من عاداهم تتودد
ويضحى⁽¹⁾ ويظما أحمد وبناته وبنت زياد وردها لا يصرد
أنى دينه فى أمنه فى بلاده تضيق عليهم فسحة تتورد
وما الدين الا دين جدهم الذى به أصدروا فى العالمين وأوردوا
ويقول المقرئ بعد ذلك : انتهى ما سنع لى ذكره من درد السمط
وهو كتاب غاية فى بابه . ولم أورد منه غير ما ذكرته لان فى الباقي
ما تشم منه رائحة التشيع والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه ولطفه .
واذا فقد نقل لنا المقرئ الجزء الاول من الكتاب الى ان
وصل الى ذكر أسباط الرسول فوقف عند هذا الحد ، مع ان

(1) الضعاء التعرض للشمس .

الكتاب في موضوع اخبار السبط . ومن المعقول ان يكون ما سبق تمهيداً لصميم الكتاب وشهادة المقرئ عليه ، بانه غاية في بابه ، شهادة قيمة نريدنا أسفاً على فقدانه . (1)

وبعد فابن الابار مؤرخ اديب مسلم نعلق قلبه بحب الرسول وذريته ، وقد كان هذا الكتاب منه انتاج العقل والقلب معا ، انتاج الرجل العالم المثقف الذي وعى التاريخ وعرف حقائقه ، فلا صعوبة عليه في ذكرها ، والذي ملك اعنة البيان فلا صعوبة عليه في التعبير باللغة التي يريد ، والاسلوب الذي يريد ، والذي تملكته عاطفة حب الرسول والولاء آل الرسول فالهبت خياله ، واطاقت قلمه بالتعبير . ولا احسب هذا الكتاب الذي جمع بين قوة العقل ، وقوة الحب ، وقوة الخيال الا كتاباً معبراً تعبيراً صادقا عن قدرة مؤلفه البلاغية ، وممثلاً له تمثيلاً صحيحاً صادقاً . ذلك لان ابن الابار مؤلف التكملة ، والمعجم ، والحلة السيرة وتحفة القادم الخ جامع لاخبار ونكت وطرائف قرأها اوسمعتها ،

(1) بعد كتابة ما تقدم اخبرني صديقي السيد عبد الله كنون انه توجد منه نسخة بالمكتبة الاهلية بمدريد وان عنده منه نسخة غير تامة .

ومقاد او ناقل لاسلوب من سبقوه ، وابن الابرار فى الرسائل
الديوانية يراعى من اللياقة فى التعبير ما يسر له المرسل اليه
حتى تؤدى الرسالة غرضها ، وتحقق قصدها . وقد يخرج عن
طبعه فيتملق المرسل اليه او يلاطفه ، ويتودد اليه ، جريا على
حسن السياسة ، واسلوب الكتاب الرسميين . اما فى هذا الكتاب
فهو يكتب على سجيته ، ويسترسل على نظارته ، لاخوفا من نار
ولا طمعا فى جنة . وهو لهذا الكتاب الذى يمكن الحكم به على
ابن الابرار الكاتب المؤلف .

اما وقد حرمتنا بقية الكتاب فلا بأس ان ندرس اسلوب
التأليف عند ابن الابرار فى الجزء الذى اوردناه .

يحرص ابن الابرار على اسلوب السجع فى هذا الكتاب
حرصه عليه فى معظم ما ألف من كتب عند ما يريد ان يعطى
صناعة الانشاء حقها . وهو فى هذا شبيه بكل كتاب عصره .

وهو يقتبس ما امكنه من القرآن والحديث والامثلة السائرة
والشعر ، شأنه فى هذا ايضا شأن غيره من كتاب عصره . فتراه
يدخل فى اسلوبه مثلا العبارات « ومنعوا اليتيم ان يقهر »

« ومن يكتبها فإنه آثم قلبه » « من كان لله ، كان الله له » .

تريد أن أدرك المآلى رخيصة . . . الخ .

وهو يلزم إلى حوادث تاريخية تليقها بارعا منسجما مع بقية العبارات والأفكار ، كما يفعل كتاب الملاحظات ، وكما يفعل الكاتب المؤرخ الذى يذكر الحوادث جيدا ، ويعد فى حوادث يومه مذكرا بحوادث غده . فتراه يقول مثلا : « نوجى بما فى الكتاب المسطور ، ونودى كما نودى موسى من جانب السطور » . وهو يستعمل كثيرا من الجناس فى عبارته ، ويلجأ إلى الكلمات المتشابهة الحروف والنطق فيصوغها متجاورة فى العبارة الواحدة أو الجملة مثل « ما قَدَّ من أديم آدم أطيب من أبيهم طينة » « فان تميزوا فبشريعتهم البيضاء او تحيزوا فلعشيرتهم الحمراء » « وغير بدع ولا بعيد ان يبدأ الوحي بعيد » هكذا نجد أسلوب ابن الأبار فى هذا الكتاب مشبعا بالمحسنات اللفظية ، والصناعة المقصودة فى اختيار الكلمات واقتباس العبارات والجمال ، وهو مع كل هذا أسلوب مقبول سهل ، أسلوب أسهل وأخف من أسلوبه فى بعض رسائله .